مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد العاشر
1993م.

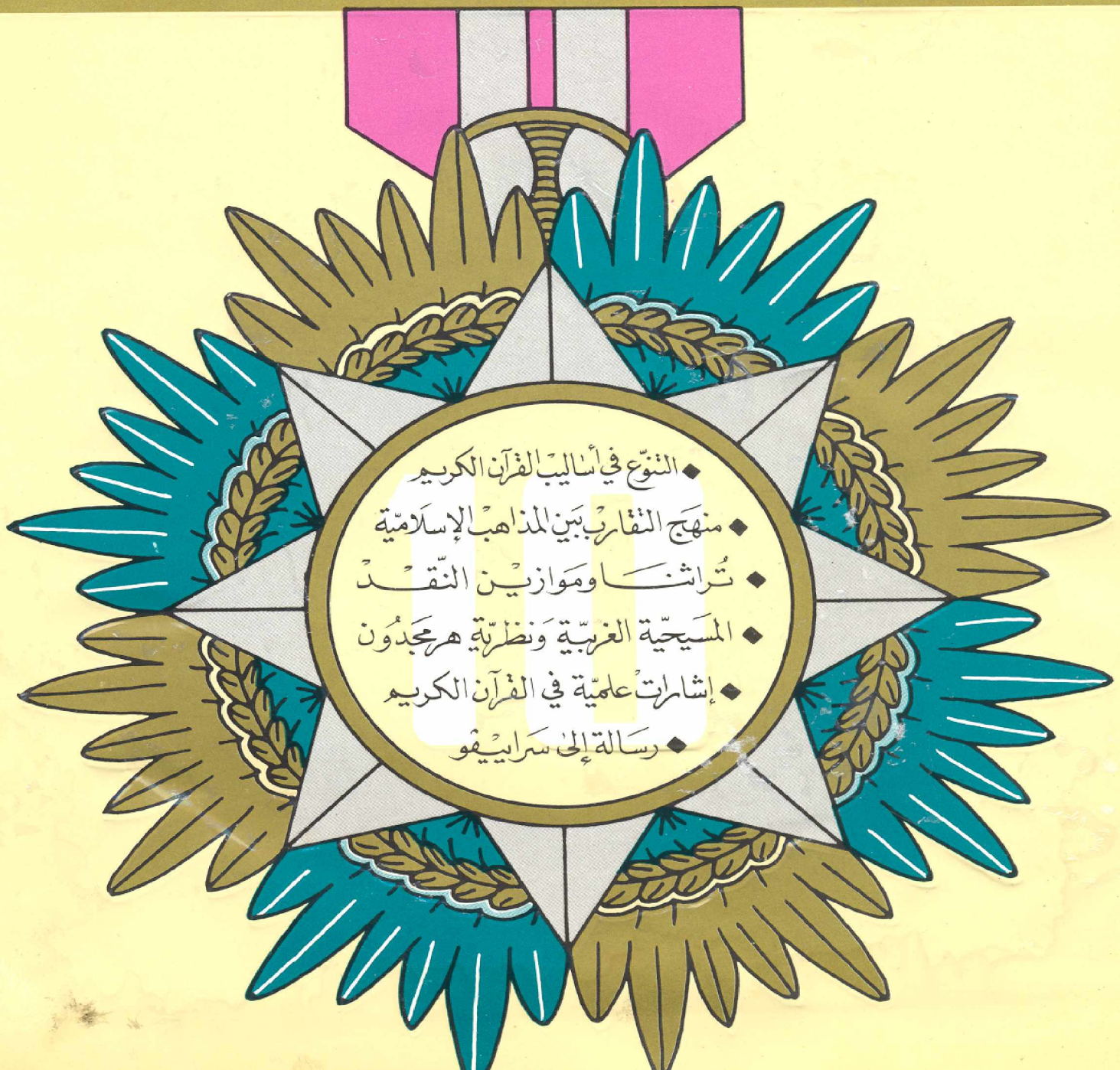

- التنوع في أساليب القرآن الكريم
- منهج التقارب بين المذاهب الإسلامية
- تراثنا وموازين النقد
- المسيحية الغربية ونظرية هرمجدون
- إشارات علمية في القرآن الكريم
- رسالة إلى سراييفو

التنوع في أساليب القرآن الكريم

الدكتور شلتاغ عبّود
كلّية اللّغات ـ جامعة سبها

معالم البحث

1 ـ مقدمة
2 ـ الطوابع الخاصة للسور.
3 ـ نظرة عامة عن التنوع.
4 ـ في مجال القصة.
5 ـ جمل متكررة في صور متنوعة.
6 ـ صور متنوعة من التقديم والتأخير.
7 ـ نسق متنوع بين المعطوفات.
8 ـ المسمّى واحد والألفاظ متنوعة.
9 ـ تنوّع في الضمائر.
10 ـ في الحركات الإعرابية.
11 ـ في حروف الجر.
12 ـ الفاصلة القرآنية.
13 ـ خاتمة.

ـ 1 ـ

من المعلوم أنّ القرآن تتعدد موضوعاته وتتغير من دعوة إلى توحيد الله، إلى قصص الماضين وأخبارهم، إلى حديث عن الغيب والملائكة واليوم الآخر وما فيه

من مشاهد سعادة أو شقاء، إلى ذكر للعبادات من صلاة وصوم وحج وزكاة، إلى تفصيلات تتعلق بالأحكام والمعاملات، وذكر لمكارم الأخلاق والصفات التي يمتاز بها المؤمنون.

وبناءً على تعدد هذه الموضوعات والمعاني تتلون أساليبه وأدواته الفنية، سواء في النظر إلى سورة مجملة أو مفصلة، أم في النظر إلى آياته متضامة أو متفرقة. على أن هذا التعدد في الموضوعات والتلوّن في الأساليب وطرق الأداء لا يعني أنَّ كلّ موضوعٍ من تلك الموضوعات يُعالج بأسلوب معين من الأساليب، بل للقرآن شأن خاص ومنهج فريد في تناول موضوعاته، بحيث لا يخصّص جانباً من صفحاته للحديث عن موضوع بشكل مستقل عن الموضوعات الأخرى، بل تتداخل الموضوعات فيه حتى لكأنه لا يريد منا النظر إلى تلك الموضوعات لذاتها، وإنما يريد أن يضعها في إطار من الوحدة المرتبطة بمصدرها، مثلما يريد أن يُثبتها في نفس المتلقي مجتمعة . فهي ليست موادّ قانونية تحتاج إلى استظهار، بل موضوعات يربطها نسيج الروح الخاشع، والقلب المستجيب لنداء ربه وتوجيهات بارئه.

ولعله بسبب من هذا لا ترى قارىء القرآن ـ مهما كانت درجة ثقافته ـ يسأم من قراءته، بل يزداد تعلّقاً به كلما أطال هذه القراءة.

ويخطىء من يدعو إلى إعادة ترتيب آيات القرآن وسوره بحيث نجمع آيات الأحكام في سورة أو عدة سور، وقصص الماضين في فصل أو باب، ومواضع الحديث عن التوحيد أو الغيب والملائكة ومشاهد القيامة في أبواب أو فُصول شأن الكتب الأرضية. إن إعادة ترتيب القرآن على هذه الصورة تضيع هدف القرآن من ذلك العرض المتفرد الخاص لموضوعاته ومعانيه، في تلك الطريقة الخاصة في ترتيب سوره وآياته. بل إننا لو فعلنا هذا لتجمّعت بين أيدينا موضوعات لا هي بالتاريخ، ولا هي بالقصص ولا بالأحكام، ولضاع التأثير النفسي والجمال الأدبي الأخّاذ، الذي سحر نفوس العرب، وأذهلهم عن مجاراته[1].

(1) التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، دار الشروق، بيروت، ط 2، 1976، ص 212.

إن القرآن بطريقته الخاصة في العرض يستطيع أن يحقق أهدافه الدينية والتربوية، ولو بالجزء اليسير منه، بينما لا يستطيع قارىء القرآن أن يلم بهذه الأهداف لو قرأها منظمة باباً باباً: أو مادةً مادةً[2].

ولم يكن هدفنا في هذا البحث أن نقف عند هذه القضية طويلاً، وهي قضية تنويع القرآن في موضوعاته، ولا عند طريقته الخاصة في توزيع هذه الموضوعات على سوره وآياته، في سياق روحي وديني ليس له شبيه، بل نريد أن نقف عند تنوّع التعبير القرآني عن هذه الموضوعات، وهو تنوع يشمل القرآن كله، ولا يقف عند بعض سوره أو آياته. وربما كان استقصاء أنماط التعبير كلها أمراً عسيراً في هذا البحث الموجز، فلربما احتاج إلى رسالة شاملة، ترصد جهود العلماء والبلاغيين والباحثين، وتضيف لها الجديد. وحسبنا هنا أن نقف عند بعض المعالم. ونلفت النظر إلى بعض الظواهر الأسلوبية في صياغة القرآن وتعبيره.

- 2 -

إن نظرة متأملة في سور القرآن تهديك إلى أن لكل منها ـ تقريباً ـ طابعاً خاصاً تجد ملامحه في طول السورة وقصرها، أو في موسيقاها وفواصلها، أو في لونها الأدبي، أو في موضوعها في بعض الأحيان. وهذا لا يتناقض مع ما أشرنا إليه سابقاً، وهو أن القرآن لا يرتب موضوعاته ترتيباً يشبه ترتيب الكتب القانونية المعاصرة.

فما من شك في أن سورة البقرة بطول آياتها، وبمعالجتها للأحكام تختلف عن سورة يوسف التي تعرض قصة سيدنا يوسف عرضاً قصصياً خاصاً، كما تختلف عن سورة الرحمن في نمطها الموسيقي الخاص، وتكرارها للازمة ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾، بشكل لا نلحظ له مثيلاً في القرآن كله، إلا في سورة (المرسلات)، مع بعض الفوارق. وقل الشيء نفسه في سورة الشعراء في قصر

(2) البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي، دار الزهراء، بيروت، ط 1، 1968، ص 92.

آياتها مع طولها إجمالاً. ومثلها سورة الصافات التي بلغت آياتها مائة واثنتين وثمانين آية في عدد محدود من الصفحات.

وهذا الطابع الخاص لسور القرآن يجعلنا أمام يقين جازم أن الترتيب الذي بين أيدينا لسور القرآن وآياته قد كان وراءه جبريل ـ عليه السلام ـ وما أمر محمد ﷺ به من عند نفسه. مع علمنا بأن هذا الترتيب لم يكن ترتيباً زمنياً لنزول آيات القرآن وسوره. ولكنه مع ذلك معجز في تأثيره، معجز في تحقيق أهدافه التي ترمي إلى بناء الإنسان الرباني القرآني الفريد.

على أن عدم ترتيب القرآن لسوره وآياته ترتيباً زمنياً لم يكن هو الطابع العام الشامل لكل السور والآيات، بل كان محدوداً في بعض منها، يدل عليه هذا النسق الخاص والوحدة والانسجام بين الآيات في السورة الواحدة.

ـ 3 ـ

قلنا إن موضوعات القرآن تتنوع في سوره وآياته، ولكنه تنوع في سياق خاص من التشابه، ليس بالتكرار، ولكنه تشابه في الهدف من التوجيه، فهو (مثاني)، كما جاء في التعبير القرآني (3) أي موضوعات متوالية متشابهة، لا من حيث الطريقة والأداء، ولكن من حيث إحداث الأثر ﴿**تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم**﴾، ووحدة الهدف.

ولكن التنوع المطرد العجيب إنما يتم في الأساليب والصياغة، ما بين أساليب إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، ومضي وحضور واستقبال، وتكلم وغيبة وخطاب، وما بين فصل ووصل، وحقيقة ومجاز، وما بين جمل إسمية وفعلية، وما فيها من نفي أو إثبات، أو نهي وتمنٍ وترجٍ ودعاء واستفهام. إلى غير ذلك من الأساليب البيانية واللغوية والصيغ التعبيرية المتنوعة. (ومع هذه التحوّلات السريعة المستمرة التي هي مظنة الاختلاج والاضطراب، بل مظنة الكبوة والعثار، في داخل

---

(3) تنظر آية 23 من سورة الزمر.

الموضوع، أو في الخروج منه، تـراه لا يضطرب، ولا يتعثـر، بل يحتفظ بتلك الطبقة العليا من متانة النظم وجودة السبك، حتى يصوغ هذه الأفانين الكثيرة منظراً مؤتلفاً[4].

والملاحظ أن هذا التنوع في الأساليب يخضع لدواعٍ معنوية التفت إليهـا العلماء قديماً وحديثاً، وربما وقفوا حائرين أمام بعضهـا، وفي كل جيـل وعصر يهيِّىء الله لكتابه من يضيف إلى فهم السابقين فهماً جديداً لأسراره.

فحين نقرأ قوله تعالى في سورة لقمان ﴿**إنّ الله عنده علم الساعة، وينزّل الغَيْث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرض تموت. إن اللّه عليم خبير**﴾ آية: 34، نلاحظ في آية واحدة كيف تتعدد الأساليب من جمل اسمية إلى جمل فعلية، ومن جمل مثبتة إلى جمل منفية. وقد أشار علماء البلاغة إلى أن الجمل الاسمية تفيد الثبوت في أصل وضعها، إن لم تكتنفها قرائن ودلالات تخرجها عن أصل وضعها. ولعله المراد من مجيء الجملة الاسمية ﴿**إنّ الله عنده علم الساعة**﴾ و﴿**إن الله عليم خبير**﴾، فعلم الله بالساعة ثابت مستقر وليس متغيّـراً، ومثلُه كونـه عليماً وخبيـراً بشؤون خلقه من الأكـوان والإنسان. أما مجيء الجملة فعلية فقالوا إنه لإفـادة الحدوث في زمن معين من مضي أو حضور أو استقبال، ولعلّه المقصود في ﴿**وما تـدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت**﴾ بأصل الوضع. أمّا قوله تعالى ﴿**وينزّل الغيث، ويعلم ما في الأرحام**﴾ فلعل الجملة الفعلية فيهـا دالة على الاستمـرار بدلالة القرائن[5].

ربما تكون هذه الدلالات أو غيرها وراء تعدد الأسلوب في الآية الواحدة، ولكننا أمام ظاهرة ملفتة من التنوع نجدها في آيات القرآن وسوره.

ولدواع معينة نجد التوكيد يكون مرة بأداتين، ومرة بثلاث أدوات، كما في

---

(4) النبأ العظيم، د. عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط 4، 1977، ص 144.

(5) ينظر، علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط ؟، 1985، ص 51-25.

شأن أصحاب القرية التي جاءها المرسلون في سورة يس ﴿**واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذْ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزّزنا بثالثٍ، فقالوا إنا إليكم مرسلون. قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون**﴾ الآيات 12-15. إذ يبدو أن الإثنين اللذين جاءا لأصحاب القرية قالا: نحن مرسلانِ من الله إليكم. فحين كذّبوهما، وجاء الثلاثة قالوا: ﴿**إنا إليكم مرسلون**﴾ بأداة التوكيد ﴿إن﴾، وتقديم الجار والمجرور الدال على التخصيص، وهو نمط آخر من التوكيد. ولما كذب الثلاثة كان التوكيد بالقسم ﴿يعلم﴾، وبـ ﴿إنّ﴾، وباللام فضلاً عن تقديم الجار والمجرور. وهذا تنوع في إلقاء الخبر وفقاً للحال التي يكون عليها ذهن المتلقي واستعداده أو إنكاره، كما يقول علماء البلاغة[6].

وفي آيات من سورة النمل نجد عرضاً يثير الوجدان ويشد المخلوق إلى مصدر خلقه، بطريقة أبعد ما تكون عن طرق علم الكلام أو الفلسفة، بل هي استنطاق للحواس والفطرة والضمير معاً، فنجد مع تكرار الاستفهام ﴿أمّن﴾ الذي يجعلنا أمام أنماط متشابهة من الصياغة، مع هذا التشابه نجد تنوعاً في أزمنة الأفعال. فبينما نجدها أفعالاً ماضية في الآيات الأولى (خلق، أنزل، أنبت، أرسل)، نلحظها تتحول إلى أفعال مضارعة في الآيات الأخيرة، (يجيب، يكشف، يجعل، يهدي، يرسل، يبدأ، يعيد، يرزق). كما تلاحظ في هذا النص القرآني الأخاذ بروعة صياغته وعمق تأثيره: ﴿**أمّن خلق السمواتِ والأرض، وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجةٍ ما كان لكم أن تُنْبتوا شجرها؟ أإله مع الله؟ بل هم قومٌ يعدلون. أم من جعلَ الأرضَ قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسيَ وجعل بين البحرين حاجزاً؟ أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون. أمن يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض؟ أإله مع الله؟ قليلاً ما تذكّرون. أم من يهديكم في ظلمات البرّ والبحر،**

---

(6) الإيضاح في علوم البلاغة، للإمام الخطيب القزويني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 5، 1980، ص 93.

ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته؟ أإله مع الله؟ تعالى الله عما يُشركون . . .﴾ الآيات 60-64.

فما الداعي إلى هذا التنوع في صياغة الأفعال يا ترى؟ يُشير ظاهر الآيات إلى أنها مع الأزمنة الماضية تتحدث عن نعم تم خلقها، وتم إهداؤها لهذا الكائن المكرم لدى خالقه، بينما تتحدث الأزمنة المضارعة عن نعم مستمرة ومستحدثة، بطبيعة الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال.

وحين تعيد النظر ثانية تجد تناوباً بين التشابه (أمن، أإله، بل) والتنوّع في أزمنة الأفعال، وطبيعة الضمائر في الغيبة والحضور، وألوان الفاصلة. كل هذا في حيّز محدود من صفحات القرآن. ومن المؤكد أن منبع التأثير العميق لهذه الآيات لا يقف عند هذا التنوع أو التشابه اللذين أشرنا إليهما، بل يتعداه إلى دلالات معنوية وأسلوبية أخرى لم يكن من هدفنا الإشارة إليها في هذا البحث.

- 4 -

بعد هذه الفكرة العامة عن التنوع في طرق الأداء القرآنية نتدرج في الحديث عن مظاهره في مواضع متعددة، ونبدأ بالقصة القرآنية، فنقول: إن هذا الموضوع له أبحاثه الخاصة المتعددة، ولا يهمنا من هنا إلا قضية التنوع في العرض.

ومن المعلوم أن القصة القرآنية تختلف عن القصة البشرية في مواضع، وتشبهها في مواضع أخرى مثل التصميم والشخصيات والحوار والمفاجأة. وهي في الأحوال كلها لا تلتزم طابعاً واحداً في هذه العناصر أو في غيرها، بل تتخذ من «التنوع» منهجاً لها.

ففي مجال التصميم العام للقصة يتنوع العرض بين ذكر ملخص للقصة في مطلعها، ثم تأتي التفصيلات بعد ذلك، وبين ذكر العاقبة والمغزى في بداية القصة، ثم تبدأ القصة في مراحلها الأخرى. وفي حالات أخرى تسرد القصة بلا مقدمة ولا تلخيص[7].

(7) التعبير الفني في القرآن، ص 227.

ويتم عرض الشخصية في صور متباينة، فقد تبرز الشخصية منذ ولادتها مثل شخصية سيدنا عيسى، أو في صباها مثل شخصية يوسف، أو لا تظهر إلا في مرحلة الرسالة مثل شخصية نوح وإبراهيم وصالح ولوط وشعيب وهود. وقد ترد على شكل شخصيات إنسانية عادية، أو شخصيات مثالية[8]، وربما كان الأبطال شخوصاً حيوانية مثلما هو الحال مع هدهد سليمان (عليه السلام)[9].

ومثلما تتنوع صور الشخصيات يتنوع الحوار بينها، فيكون مباشراً حيناً، وغير مباشر حيناً آخر. وقد يكون مفصّلاً للجزئيات، كما يكون منقطعاً تاركاً بعض الفجوات للقارىء أو السامع ليملأها في تفكيره[10].

أمّا المفاجأة فلا تكون واحدة في الأحوال كلها، فمرة يكتم السر عن البطل والنظارة، وأخرى يكشف السر للنظارة ويترك الأبطال في جهل وعماية، ومرة ثالثة لا يكون هناك سر، بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد[11]. إلى غير ذلك من أنواع المفاجآت، ولا مجال هنا لعرض الأمثلة القرآنية لتَعَرُّفِ هذا التنوع في طبيعة المفاجآت في القصة.

وعلى الرغم مما يقال عن التكرار في القصص القرآنية، فإننا نلاحظ أنه تكرار من نوع خاص، بحيث لا يعيد المادة نفسها، ولا يلجأ إلى أدوات العرض ذاتها، حتى كأنّك أمام قصة جديدة ذات هدف جديد وعرض جديد.

- 5 -

ما كان من أمر التنوع في القصة القرآنية يمكن أن يكون أوسع مما نحن بصدده من تبيان مواضع محددة من أساليب القرآن المتنوعة في الموضوع الواحد،

(8) سيكولوجية القصة في القرآن، د. التهامي النقرة، الشركة التونسية، ط 1، 1974، ص 369.

(9) الفن القصصي في القرآن، د. محمد أحمد خلف الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 2، 1957، ص 262.

(10) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ؟، 1974، ص 124.

(11) التعبير الفني في القرآن، ص 224، 225.

أو الآية الواحدة، أو اللفظة الواحدة، المتنوعة من موضع إلى آخر، وربما الحرف أو الحركة الإعرابية. كما سنلاحظ.

ووقفتنا في هذه الفقرة ستكون عند جمل تتكرر في صور متنوعة قد نهتدي إلى سبب هذا التنوع وقد نقف عاجزين أمام سره. ولتكن الإشارة إلى أمثلة محددة تفتح الباب أمام متابعة هذا التنوع في القرآن كله.

خذ مثلاً قوله تعالى في سورة الكهف، بعد قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب، ولكنه كفر بأنعم الله، وكانت عاقبتُه خسراً، حيث أُحيط بثمره وأصبح يقلّب كفيه على ما أنفق فيها... وتختتم القصة بقوله تعالى: **﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله، وما كان منتصراً﴾** الآية 43. وفي مشهد آخر شبيه لهذا من سورة القصص، حيث يكون مآل قارون الطاغية الغني الذي قال: **﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾**، وكفر بأنعم الله أيضاً وكان عاقبته أن خَسَفَ الله به وبداره الأرض!! ويختتم المشهد بقوله تعالى: **﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان من المنتصرين﴾** الآية 81.

ترى ما الذي دعا إلى تغيير التعبير من **﴿لم تكن﴾** إلى **﴿ما كان﴾**؟ و **﴿فئة﴾** إلى **﴿من فئة﴾**، و **﴿منتصراً﴾** إلى **﴿من المنتصرين﴾**؟ الله أعلم بمراده، ولكن ظاهر الأمر يعلل بأن التأمل في القصة الأولى، ينتهي بنا إلى أن الرجل الأوّل لم يكن من العتوّ والكبرياء التي بلغها (قارون) في القصة الثانية، والذي يدل على هذا أنه قال: **﴿يا ليتني لم أشرك بربي أحدا﴾**، بهذه النهاية النادمة، في حين أن المشهد الثاني لم يشر إلى ندم قارون. وقد كانت العقوبةُ للأول بزوال جنته فقط، بينما خسف بقارون وبداره معاً في القصة الثانية!!.

ولهذا يمكن القول إنّ الأسلوب الثاني أشدُّ قوة وعنفاً من خلال **﴿ما كان﴾**، الفعل الدال على المضي والتحقق في الأصل ونفيه بـ **﴿ما﴾** التي قربته من الحال و **﴿من فئة﴾** بإضافة **﴿من﴾** الدالة على تأكيد النفي، بمعنى لا توجد فئة على الإطلاق تنصره وفي هذا ما فيه من الحزم والجزم وعدم الرحمة والرأفة في الموقف. وهو أشد من **﴿فئة﴾** وحدها بدون حرف الجر الدال على التوكيد، وهو

الزائد كما يقال في الصناعة النحوية. ويمكن الاستعانة بالاتجاه نفسه في تعليل ﴿**من المنتصرين**﴾ بدل ﴿**منتصراً**﴾. ففي حالة قارون نفي مطلق أن يكون أيٌّ من جنس البشر ممتنعاً على الله وعقابه الصارم، وهو عقاب يشمل قارون وجنسه وأولياءه. بينما يشار إلى الرجل الأول ﴿**منتصرا**﴾ وهو أهون على الله حين يكون وحده، فإذا كان الجنس كله لا يمتنع على الله، فهو أولى بالخضوع والاستسلام. ونسأل اللّه التسديد.

وانظر إلى هاتين الآيتين:

﴿**الذي جعل لكم الأرض مهداً، وجعل لكم فيها سُبُلاً**﴾ [الزخرف/10]، ﴿**الذي جعل لكم الأرض مهداً، وسلك لكم فيها سُبُلاً**﴾ [طه/52].

ترى هل كان تغيير ﴿**جعل**﴾ في الآية الأولى إلى ﴿**سلك**﴾ في الآية الثانية اعتباطاً، ودونما داع؟!

ونودّ هنا أن ننطلق من فرضية تقول: إن أيَّةَ زيادة في الصياغة أو تلوين في التعبير، يؤدي إلى تغيير في الدلالة، أو إعطائها إيحاءً جديداً. وحين نستعين بالسياقين اللذين وردت فيهما الآيتان نجد أنّ آية الزخرف قد تحدثت عن التذكير بالإيجاد والجعل من عدم، والكلام للّه سبحانه بعد اعتراف الكافرين بأنه هو الخالق وحده ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض، ليقولنَّ خلقهن العزيز العليم**﴾، ثم يستمر الحديث مباشرة ﴿**الذي جعل...**﴾ والكلام المستأنف للّه، وليس لهم.

أما آية (طه) فجاءت تتحدث عن نعم الله على لسان سيدنا موسى، فناسب حديثه الفعل ﴿**سلك**﴾ الذي هو مرتبة ثانية بعد الخلق والجعل الذي تتحدث عنه آية الزخرف. فبعد الخلق يتم ﴿**السلك**﴾ وإدخال السبل والطرائق بين الجبال[12]. والله أعلم.

---

(12) تنظر آيتا سورة نوح ﴿**والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سُبُلا فجاجا**﴾ 18، 19. فقد جاء ﴿**جعل**﴾ في سياق الخلق والجعل، وجاء ﴿**لتسلكوا**﴾ في مرحلة تالية للخلق والجعل مع وجود اللام التي بمعنى (كي)، أي جعلت بساطاً لتسلكوا.

وتأمل معي هذه الإشارة الثالثة إلى طبيعة التنوع في صياغة الجملة القرآنية. ففي آيات ثلاث من سورة المائدة نواجه هذه الخاتمة المتنوعة:

﴿**ومن لم يحكمْ بما أنزل الله، فأولئك هم الكافرون**﴾ الآية 44. ﴿**ومن لم يحكمْ بما أنزل الله، فأولئك هم الظالمون**﴾ الآية 45. ﴿**ومن لم يحكمُ بما أنزل الله، فأولئك هم الفاسقون**﴾ الآية 46.

وحين نراجع تفسير الزمخشري ونجد قوله ﴿من جحد حكم الله كفر، ومن لم يحكم به فهو ظالم فاسق﴾[13]، ننتهي إلى الاطمئنان إلى أن علة هذا التنوع في التعبير تكمن في التنوع في طبيعة الناس الذين يحكمون بغير ما أنزل الله. فليسوا كلهم ينكرون حكم الله ووجوب تطبيقه على المسلم، بل منهم من يؤمن بذلك، ولكنه يظلم نفسه بعدم تطبيقه ويظلم الناس، وهي درجة أقل من الدرجة الأولى من الناحية النظرية، وإن كانت من حيث النتيجة واحدة، إذ يفترض ممن يؤمن بالله ألا يظلم عباده، وألا يحكم بغير ما أنزل خالقه. ولا يتسع المقام لبسط الآيات التي ورد فيها التعبير المتغير.

- 6 -

موضوع التقديم والتأخير يدرس في الكتب النحوية لبيان تقدم الخبر أو المفعول به أو الجار والمجرور. كما يدرس في الكتب البلاغية لبيان الدواعي المعنوية والنفسية لتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم.

أما علاجنا لهذا الموضوع فسيكون من زاوية غير الزاوية النحويّة أو البلاغية، التي تنظر إلى التقديم مستقلاً عن التأخير في النص نفسه. فنحن مع النماذج القرآنية هنا ننظر إلى الموضوعات والجمل والأسماء، متقدمة مرة ومتأخرة أخرى، متأملين في الهدف وراء هذا التقديم والتأخير اللذين يكونان في سياقات متشابهة.

ففي حديث القرآن عن الجنة والنار، مثلاً، تتقدم مشاهد العذاب والجحيم

(13) الكشاف، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1948، حـ 2، ص 463.

على مشاهد الجنة والنعيم تارة، وتتأخر عنها تارة أخرى، وفي مواضع متعددة من القرآن. وبناءً على أنّ النظر في هذا الموضوع يستدعي عرض نماذج لمشاهد طويلة لا يَتسع لها صدر هذه الصفحات، فإننا سنعرض أمثلة قليلة تحقق هدف هذه الفقرة.

يتكرر الحديث في القرآن عن الضلالة والهداية، فيكون بهذه الصيغة في غالب الأحيان ﴿**يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾، بتقديم يضل على يهدي حتى ليكاد قارىء القرآن يظن أنه هو الأسلوب الشائع في التناول القرآني. ولكن التأمل لإحصاءات ينتهي بنا إلى وجود مثالين فقط في القرآن كله يتقدم فيهما الفعل ﴿**يهدي**﴾ على الفعل ﴿**يضل**﴾، وهما:

﴿**من يهدِ اللهُ فهو المهتدي، ومن يُضللْ فأولئك هم الخاسرون**﴾ [الأعراف/178].

﴿**من يهدِ اللهُ فهو المهتد، ومن يُضللْ فلن تجد له ولياً مرشدا**﴾ [الكهف/17].

وعند تأمل الأمثلة الغالبة، وهي تقديم الضلال على الهداية، يغلب على إحساسنا أنه هو المناسب. لأن الهداية تمت من قبل الخلق في الفطرة، وأول ما يتم بعدها هو الإضلال. أي إن الإنسان ينحرف عن منهج الله فيضله. فالإضلال هو الحادث[14]. ولما كان هو الغالب في بني آدم، أي إن أغلبهم ينحرف عن منهج الفطرة، كان الغالب في التعبير القرآني تقديم هذا الاتجاه من الضلال على الهداية. أما القليل من البشر فهم الذين يستمرون على حالة الهداية الأولى من الخلق الأول، ولهذا جاء التعبير بصورته النادرة بتقديم الهداية على الضلال، كما ورد في النموذجين السابقين.

كما أن هناك ملحظاً آخر في الآيتين السابقتين، وهو أنهما جاءتا دالتين على معنى أن الذي يهديه الله لا تستطيع أيّةُ قوة في الكون أن تضله، وأن الذي يضله لا يمكن أن يجد طريق هدى من لدن أي كائن في الوجود، وليستا في مجال بيان فكرة التغيير الأول الذي يحدث على الهداية الفطرية القديمة وهو الضلال، كما تشير إليه غالبية الآيات.

---

(14) استفدت في هذه الملاحظة من الدكتور سمير مسلماني، المقيم حالياً بمدينة كانو بنيجيريا.

هذا ملحظ واحد، تأمل كيف يتلون فيه التعبير في المادة اللغوية الواحدة، لدواعٍ قد تكون مما أشرنا إليه، وقد تكون لدواعٍ أخرى..

وبعد هذا التعبير بالجملة انظر إلى كلمة ﴿**أموالهم**﴾ كيف تتقدم بنسبة عالية جداً على ﴿**أنفسهم**﴾ في القرآن، فلم أجد إلّا آية واحدة في القرآن كله تقدم فيها كلمة (أنفسهم) على (أموالهم) وهي الآية 111 من سورة التوبة ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة**﴾.

والذي يبدو لي ـ والله أعلم بمراده ـ أن تلك الآيات الكثيرة جداً توحي بحرص الإنسان الشديد على المال حتى ليقدمه على نفسه، ولذلك فالآيات كأنما تريد أن تنتزع الإنسان من هذا الانشداد نحو المال، أو إعطائه حجماً أكبر من حجمه الحقيقي.

أما في هذه الآية، فكما تلاحظ، فإنّ الذي يختار ويشتري هو الله، وليس التصرف هنا من عند الإنسان، ولذلك فهو سبحانه يختار الأغلى والأسمى وهي الروح التي كُرّم بها بنو آدم، ولم يختر المال الذي هو عرض زائل.

وحين يواجهك في سورة واحدة، مثل سورة الواقعة الاسمان ﴿**الضالون والمكذبون**﴾ مرة يتقدم الأول، ومرة يتقدم الثاني، كما في هاتين الآيتين ﴿**ثم إنكم أيها الضالّون المكذبون، لآكلون من شجر من زقوم**﴾ الآية 51. ﴿**وأما إن كان من المكذبين الضالين، فنزلٌ من حميم**﴾ الآية 92

فبأي استنتاج تخرج يا ترى؟ من المعلوم أن الآيتين تتحدثان عن أهل مكة ومن في مثل حالهم، كما يقول الزمخشري[15]. فالآية الأولى تتحدث عمّا ستؤول إليه حال الضالين عن الهدى المكذبين بيوم البعث، بينما تتحدث الآية الثانية عن مشهد من مشاهد الحساب قد تم فيه فعلاً تصنيف البشر إلى ثلاثة أصناف ﴿المقربين، وأصحاب اليمين والمكذبين الضالين﴾ وتلقّى كل منهم ثوابه أو عقابه. لقد كان الضلال في الحياة الدنيا هو الذي دعا إلى التكذيب بالبعث، أما

(15) الكشاف، حـ3، ص 195.

وقد حل يوم البعث والحساب، فلم يعودوا إلا أمام حالة تكذيبهم بهذا اليوم وهو الذي أوردهم العذاب، ولم تعد الإشارة إلى كونهم ضالين بذات أهمية. ولأمرٍ من هذا أو غيره كان تقدم الضالين على المكذبين في الآية الأولى، وتقدم المكذبين على الضالين في الآية الثانية. والله أعلم.

ولعلك لاحظت الآن كيف يتّجه تتبعُنا لظاهرة التقديم والتأخير في القرآن، وهو أمر يختلف عن المعالجة النحوية أو البلاغيّة التي تتأمل حالة التقديم أو التأخير مستقلة دونما متابعة منها للحالات المتنوعة والمتقلّبة بين التقديم والتأخير في القرآن كله.

- 7 -

تستطيع أن تقرّر دونما تردّد أنّ التنوع هو القاعدة المطّردة في أساليب القرآن، وأنّ الثبات والتكرار لأسلوب واحد دون تنوع لا يرد إلا قليلاً أو نادراً، وحين يرد هذا التكرار بصورة واحدة لا بد أن يكون وراءه سر معنوي أو نفسي أو علمي، يعلمه الذين يستنبطونه من العلماء. فمن هذا النوع الثابت في مجال عطف النسق قوله تعالى: **﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾** [النحل/78]، دائماً يرد السمع أولاً والأبصار ثانياً والأفئدة ثالثاً دون أن يتغير هذا النسق في أية آية من القرآن على الإطلاق. ولعلّ وراء هذا السر الذي كشف العلم في أنّ أول حاسة لدى الإنسان تعمل في اللحظات الأولى من حياته هي حاسة السمع ثم البصر ثم حاسة الوعي والحواس الأخرى بعد ذلك.

أما أنواع النسق الأخرى فتتنوع في كثير من الأحيان. خذ هذا النسق بين الأخ والأم والأب والصاحبة والبنين حيث يرد في صورتين مختلفتين في النموذجين التاليين:

﴿يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه. لكل امرىء منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه﴾ [عبس/33- 36].

﴿يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي

تؤويه، ومن في الأرضِ جميعاً ثم يُنجيه﴾ [المعارج/ 11 - 14].

حيث يبدأ العطف بذكر الأخ ثم الأم والأب والصاحبة وينتهي بالبنين، كما تلاحظ في النموذج الأول. ولقد أشار بعض المفسرين إلى سر تأخير الأبناء في هذه الآيات، فقالوا: إن بلاغة النسق هنا تجري على أساس التدرج من الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب. قال الزمخشري: (وبدأ بالأخ ثم الأبوين لأنهما أقربُ منه، ثم بالصاحبة والبنين، لأنهم أقربُ وأحب، كأنه قال: يفرُّ من أخيه بل من أبويه، بل من صاحبته وبنيه)[16].

ولكن أولئك المفسرين لم يهتدوا إلى السبب في اختلاف النسق في النموذج الثاني حيث يبتدىء بذكر الأبناء. وقد التفت باحث معاصر إلى سر هذا التقديم بقوله إن المقام هنا مقام بحث عن المنقذ والمعين والمفتدي، حيث يستعين الإنسان، أول ما يستعين بالابن، بينما الموقف في النموذج الأول كان موقف فرار ونكوص عن مساعدة أقرب الأقربين، انشغالاً بالنفس من هول الفزع الأكبر ومعاناته[17].

ذلك هو سر اختلاف النسق بين المعطوفات باختلاف مقام التعبير، وهو سر يقوم على اختيار جمالي دقيق من لدن حكيم خبير.

على أن القرآن في نسق آخر من المتعاطفات يقدم ذكر الآباء ويؤخر ذكر الأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة. قال تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها، أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره. والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ [التوبة/24]. حيث المقام هنا مقام دعوة إلى الجهاد ونصره الدين، وعدم إطاعة كل ما سوى الله. ويأتي ذكر الآباء في هذا المقام لأنهم أول من يصدّ الأبناء عن الذهاب إلى الجهاد حبّاً لهم ورغبةً في

---

(16) نفسه، حـ3، ص 314.

(17) بلاغة العطف في القرآن الكريم، د. عفت الشرقاوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، 1981، ص 107.

سلامتهم كما يتصورون. ثم يأتي موقف الأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والتفكير بالمال والتجارة والمساكن[18].

وإلى صورة من صور التنوع في أساليب القرآن، وهي صور تخضع ـ كما لاحظت ـ لدواعٍ جمالية ومعنوية متعلقة بواقع الأمور في حياة البشر، والعلاقات بين أجزاء الموجود والكون كما يعلمها منشئها وبارئها.

ـ 8 ـ

وتجد في القرآن المسمى واحداً والأسماء مختلفة. وهذه صورة أخرى من صور التنوع ليس في الأساليب والجمل ولكن في المفردات. فالقرآن يذكر في قصة موسى مع فرعون، وهي قصة تتكرر في القرآن بصورة متنوعة أيضاً، يذكر الحية في بعض المواقف، ثم يذكر الثعبان والجانّ في مواقف أخرى، كما في الآيات التالية:

﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ [طه/19]، **﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾** [الأعراف/107، والشعراء/32]. **﴿فلما رآها تهتزّ كأنها جانٌ ولى مدبراً ولم يعقّب﴾** [النمل/10، والقصص/31].

فهل من الممكن أن تكون الدلالة واحدة والإيحاء واحداً في هذه النماذج من التعبير القرآني؟ وهذا الأمر وقف عنده المفسرون القدامى حائرين، وعلله بعضهم بما رآه إجابة شافية للتساؤل المحتمل حول هذا التعدد والتنوع لمسمّى واحد. قال الزمخشري: (فإن قلتَ: كيف ذكرت بألفاظ مختلفة بالحية والثعبان والجان؟ قلت: أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والصغير والكبير، وأما الثعبان والجان فبينهما تنافٍ لأن الثعبان العظيم من الحيات، والجان الدقيق منها. وفي ذلك وجهان: أحدهما أنها كانت وقت انقلابها حية تنقلب حية صفراء دقيقة ثم تتورم ويتزايد جرمُها حتى تصير ثعباناً، فأريد بالجان أول حالها، وبالثعبان مآلها.

---

(18) نفسه، ص 111. وينظر، تفسير المنار لرشيد رضا، حـ10، ص 230.

والثاني أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان. . .)[19].

ولكن الدكتور محمد أحمد خلف لا يرى في هذا حلاً أو جواباً يتسق والمنهج الفني للقرآن، وهو منهج يربط بين الجمال الفني والأثر النفسي للنص. ويرى أن الداعي لهذا التنوع في المسمى الواحد هو أن التعبير بالحية أو الثعبان يكون في الحالات التي تصور ما حصل بين موسى والسحرة وفرعون. أما الحالات التي يقصد بها إلى تصوير الرعب والخوف الذي حلَّ بنفس موسى حين رآها تهتز بصورتها المرعبة، فيأتي التعبير بـ ﴿كأنَّها جان﴾، لما في ذكر الجانّ من أثر نفسي باعث على الفزع والهلع والنّفار[20]. وفي رأينا أن جهد الزمخشري وخلف الله وغيرهما كان ينبغي أن يتجه إلى بيان الأثر في الدلالة ما بين الحية والثعبان. أما الجان فلم يقل القرآن إنها حية أو ثعبان، بل شبه بها عصا موسى فقال ﴿كأنها جان﴾، ولم يقل هي جان!! وهو تشبيه هادف وموحٍ بالدلالة المقصودة دونما شك.

إذن المتأمل ينبغي أن يقف عند لفظتي ﴿حية وثعبان﴾. والرأي الذي نبديه ينطلق من السياق الذي ورد فيه كل من اللفظتين. فالسياق الذي جاءت فيه لفظة الحية في سورة(طه) يشير إلى أن موسى كان لقاؤه بالله سبحانه وتعالى بعد أن آنس النار الإلهية وقال لأهله: إنه يريد أن يأتي لهم بقبس منها. أما السياق الذي جاءت به لفظة ﴿الثعبان﴾ في كل من سورتي الأعراف والشعراء فهو يتحدث عن الموقف بين موسى وفرعون، حيث يلقي موسى عصاه فتصير ثعباناً مبيناً. ولم يكن موسى ـ كما يبدو ـ يرى الثعبان أول مرة في هذا المقام، بل سبق له أن رآه حين أمره الله أن يلقي ما في يمينه، وكان الموقف بين الخالق وموسى آنذاك.

وواضح أنّ الحية هي التي أخافت موسى أول الأمر، وهي التي وصفها القرآن بأنها كالجانّ في سورة النمل والقصص. أما الثعبان فكان موسى يخوّف به السحرة وفرعون، وهو في مقام الواثق من أنّ عصاه سوف تنقلب إلى «ثعبان» كما

(19) الكشاف، حـ ٢، ص 992.

(20) الفن القصصي في القرآن، ص 5.

أبلغه الله. أي إنّ موسى قد تدرّب على رؤية العصا حية قبل لقائه بالسحرة.

ويبدو أنّ الحية في الموقف بين الخالق وموسى كانت دقيقة وصغيرة كما أشار الزمخشري، بينما الثعبان كان ضخماً مما أخاف السحرة وفرعون وأرعبهم. والدليل على أنه كان ضخماً أنه كان يبتلع ما كانوا يوهمون الناس من أنه حيات تسعى قال تعالى في سورة طه: ﴿. . . **وألقِ ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيدُ ساحر. . . فألقي السحرة سُجّدا، قالوا آمنا برب هارون وموسى**﴾ [طه/68-69].

وتستطيع أن تتابع التأمل في ألفاظ أخرى ترد متعددة ومسماها واحد، ولكنها في الحقيقة، لها خصُوصيات لا يلتفت إليها إلا العلماء الذين خبروا أساليب القرآن وعرفوا طابعه الخاص من اللغة العربية عموماً. فالقرآن مثلاً، يستخدم المطر والغيث وهما في ظاهر الأمر يدلان على مسمّى واحد. ولكنه لا يذكر المطر إلا في موضع الانتقام، ولا يذكر الغيث إلا في موضع الرحمة (والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر، وبين ذكر الغيث) كما يقول الجاحظ[21].

هذا هو شأن الكتاب الكريم في تنوّع ألفاظه، ولا نود في الإشارة إلى ألفاظ أخرى خشية الإطالة.

- 9 -

وكما ينوّع القرآن من موضوعاته ومعانيه على مستوى السورة والمشاهد والآيات، وينوع في جمله وأفعاله والمعطوفات من أسمائه، وفي ألفاظه التي تطلق على مسمّى واحد، كما شاهدنا، كذلك ينوّع في ضمائره. وهذا موضوع درس فيما سمّاه البلاغيون بـ (الالتفات) الذي شعّبوا فيه النظر وجاءوا بالتقسيمات والتفريعات الكثيرة[22]. ولا يهمنا هنا إلا الإشارة إلى نماذج محدودة تتعلق بالضمائر فقط.

---

(21) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ط 3، 1968، حـ 1، ص 20. وينظر كتابنا أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، دار المعرفة، دمشق، ط 1، 1987، ص 67.

(22) ينظر، علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط ؟، 1985، ص 142.

من ذلك قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم. الذي جعل لكم الأرض مهداً، وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون. والذي نزّل من السماءِ ماءً بقدرٍ، فأنشرنا به بلدةً ميتاً كذلك تُخرجون**﴾ [الزخرف/9-11]. حيث انتقل الحديث من كلامهم بصيغة الغيبة ﴿**ليقولن**﴾ إلى كلام الله ـ سبحانه ـ بلفظ الغيبة في أوله ﴿**الذي جعل لكم..**﴾، وبلفظ المتكلم ﴿**فأنشرنا**﴾ في آخره.

ونظيره قوله تعالى في سورة النمل ﴿**أمّنْ خلق السموات والأرض، وأنزَلَ من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة**﴾ [النمل/ 60]، حيث انتقل من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم. وهذا نمط عالٍ من أنماط الافتنان في البلاغة. ولم يقف حدّه عند ظواهر الألفاظ، كما يخيل لبعض الباحثين، خاصة وهم يجدون الإشارات إلى مثل هذه القضايا في فن البديع، وهو عندهم، لا يُعْنَى إلا بزخارف القول ومظاهره. بل يتعلق بطبيعة المعنى الذي يُراد تبليغه، من حيث عمقه وقدرته على التأثير في نفس المتلقي. قال الزمخشري عقب تفسير الآية السابقة من سورة النمل: (فإن قلت: أيَّ نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله: ﴿**فأنبتنا**﴾؟ قلت: تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته، والإيذان بأنّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده)[23].

ويقول ابن الأثير عقب الحديث عن الالتفات وتغيّر الضمير من المخاطبة إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿**هو الذي يسيّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة، وفرحوا بها، جاءتها ريحٌ عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان**﴾ [يونس/22]. يقول: فإنَّهُ إنما صرف الكلام ههنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة، وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها، كالمخبر لهم يستدعي فهم الإنكار عليهم. ولو أنه قال: حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة، وفرحتم بها، وساق معهم الخطاب إلى آخر الآية، لذهب تلك الفائدة التي أنتجها

(23) حـ 2، ص 457.

خطاب الغيبة)[24].

والحديث عن التنوع في الضمائر له صورة أخرى في القرآن حيث يتنقل من الإفراد إلى التثنية إلى الجمع بطريقة لافتة للنظر، كقوله تعالى: ﴿**وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً، واجعلوا بيوتكم قبلة، وأقيموا الصلاة، وبشر المؤمنين**﴾ [يونس/87]. قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: كيف نوّع الخطاب، فثنى أولاً ثم جمع، ثمُّ وحّد آخراً؟ قلت: خوطب موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ أن يتبوّءا لقومهما باتخاذ المساجد، والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى بالبشارة التي هي الغرض تعظيماً لها وللمبشر بها)[25].

ويتم تلوّن الضمائر بصور أخرى عديدة من حيث عودتها على المتكلم نفسه، أو على غيره في السياق، أو من حيث إظهارها وإبهامها على القارىء لدلالات نفسية هادفة، وهذا موضوع أسهب في الحديث عنه برهان الدين الزركشي في (البرهان في علوم القرآن[26]).

ـ 10 ـ

في بعض الأحيان تجد نفسك حائراً أمام بعض التنوع في الصيغ القرآنية، ولكنك إذا رجعت إلى حاستك الذوقية الفطرية، أو القائمة على الثقافة اللغوية والأدبية، تكشفت أمامك أسرار ذلك التنوع. وقد لاحظت كثيراً من أنماطه في الصفحات السابقة. وأود هنا أن أعود بك إلى ما يشبه تلك الأنماط في هذا المثال. قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿**وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كلِّ شيء، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً، ومن النخل من طلعها قنوان**

(24) المثل السائر، ص 170 نقلاً عن علم البديع، د. عبد العزيز عتيق، ص 144.

(25) حـ 2، ص 84.

(26) البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين بن محمد بن عبد الله الزركشي، دار المعرفة، بيروت، ط 2، س ؟، جـ 4، من ص 24، إلى 42.

دانية وجناتٍ من أعنابٍ، والزيتون والرّمان مُشتبهاً وغيرَ مُتشابه. انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ آية 99.

وتقف ملياً أمام صيغتي ﴿**مشتبهاً وغير متشابه**﴾ وتتساءل لماذا هذا التنوع في الصيغة على الرغم من أنّ الدلالة واحدة. ففي اللغة تقول: (اشتبه الشيئان وتشابها، كقولك استويا وتساويا، والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرا) كما قال الزمخشري[27]، ولكنك لا تجد عنده تعليلاً مع ما عرف عنه من لفتات نابهة يبدؤها بـ (فإن قلتَ... قُلتُ...). ولكننا نجد ضالتنا عند متذوق قرآني معاصر، يرى أن هذا لم يتم مصادفة، بل إنه (أمر مقصود هنا للتنويع بكل وسائل التنويع، وهو يستعرض أنواعاً مختلفة من الحياة في صفحة الكون، ويريد أن يلفت الحسَّ للقدرة القادرة التي تخلق كلَّ هذه الأنواع، وينسق في اللوحة المعجبة بين تعدد النماذج والأنماط في المشهد وفي التعبير عنه سواء. ألا إنّه لون من الإعجاز في التصوير والتعبير!)[28].

إذاً، هذا التنوع في التعبير كان وراءه التنوع في مواد المشهد الكوني الذي تحدث عنه القرآن في هذه الآية وسابقتها، فالحياة ومشاهدها وألوانها لم تكن قائمة على الرتابة في المشهد القرآني؛ فكان لا بد من أن يُبده الحس بتغيير النسق. وترتاح إلى هذا التأمل حين تقف عند تغيير الصياغة في الآية السابقة لهذه الآية حيث كان التعبير بهذه الشاكلة (يخرج الحي من الميت، ومخرجُ الميت من الحي) و (فالق الإصباح، وجعل الليل...) يخرج ومخرج، وفالق وجعل، مرة بالفعل ومرة باسم الفاعل بشكل لا يجعل الحس يستنيم لتعبير واحد.. فتبارك الله محكم القرآن، ومحكم الكون ﴿**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**﴾ [تبارك/3].

وإذا لم تكن لديك معرفة بعلم النحو وأسراره وتفصيلاته تجد نفسك أكثر دهشة أمام تغيّرات في الحركات الإعرابية أو المقامات النحوية، فماذا أنتَ فاعلٌ مثلاً، إزاء التغيّر في (حور) من الجر إلى الرفع بما يختلف مع سياق الأسماء

---

(27) جـ 1، ص 520.

(28) منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط 6، ص 147.

المجرورة السابقة ﴿**وفاكهةٍ مما يتخيَّرون، ولحمِ طيرٍ مما يشتهون، وحورٌ عين**﴾ [الواقعة/22-24].

على أنّ الأمر في هذه سهل، تجده في الإجابة على أن هناك قراءتين بالرفع والنصب، ولكل قراءة تفسيرها. ولكننا في تنويع آخر في الحالة الإعرابية لا يتحدث المفسرون عن تعدد أوجه للقراءات، بل يميلون إلى ثبات هذه الصورة المختلفة عن سابقاتها في الإعراب، كما في آية سورة النساء: ﴿**لكن الراسخون في العلم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة، والمؤمنون بالله واليوم الآخر، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما**﴾ آية 162.

والتغير الواقع هو في (والمقيمين). ألا ترى أنها تلفت النظر وتخرج عن سياق الأسماء المرفوعة معها؟! والتخريج النّحوي لها هو النصب على المدح لبيان فضل الصلاة، أي أمدح المقيمين للصلاة. ويؤكد الزمخشري أن هذا ليس من قبيل اللحن في خط المصحف، بل هو مذهب من مذاهب العرب، وما لهم من النصب على الاختصاص من الافتنان[29].

ويهمنا نحن هنا الإشارة إلى الطابع العام في التناول القرآني المتنوع حتى في مجالات ربما يكون التنوع فيها مظنة خطأ نحوي، أو اختلاف عن مذاهب العرب.

وربما كانت قضيّة رفع (الصابئون) المعطوفة على اسم إن الواجب النصب من أكثر القضايا حواراً وأَخْذاً وردّاً بين النحاة القدامى والمعاصرين. كما جاءت في قوله تعالى: ﴿**إنّ الذين آمنُوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً، فلا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون**﴾ [المائدة/69].

ولقد تخبط النحاة القدامى وتأولوا مذاهب شتى في رفع (الصابئون)، بل إن نحوياً من العصر الحديث ذهب إلى حدّ تخطئة العرب في نصب اسم إنّ، وكان

(29) جـ 1، ص 438.

ينبغي أن يكون حقه الرفع، وإن القرآن جاراهم في هذا الخطأ، إلا في هذه الكلمة التي جاءت مرفوعة على الأصل[30]. ولكن الذين يتأملون القرآن تأملاً معنوياً وفنياً يهتدون إلى شيء آخر، وهو أن وراء التنوع في الحركة الإعرابية بالحروف هنا، وخروجها على نسق ما قبلها وما بعدها، هدفاً ربانياً تربوياً، مصحّحاً للمفاهيم السائدة لدى اليهود حيث قالو: ﴿**نحن أبناء الله وأحباؤه**﴾ [المائدة/18]، وقالوا: ﴿**لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى**﴾ [البقرة/111]. وكأن مجيء التعبير مغايراً لما قبله بالرفع دون النصب فيه تنبيه لأفكارهم وتسفيه لمذاهبهم، وأن رحمة الله وسعت كلَّ شيء. فليس الصابئون مطرودين من رحمة الله حسب زعمهم، بل هم مثل أصحاب الأديان السماويّة آنذاك في شمولهم الرحمة إذا آمنوا بالله واليوم الآخر. . .[31].

- 11 -

في هذه الفقرة لا أريد أن أفصّل القول في الظاهرة التي أعرضها من التنوع في اللغة القرآنية، فلا أعلّل لها، ولا أبني الدواعي لها، بل أكتفي بعرض الأمثلة رغبة في دعوة القارىء إلى التأمل، فلعلّهُ مهتد إلى تعليل جديد. والظاهرة التي نحن بصددها هي تنوع حروف الجر أو اختفاؤها في موضع يمكن إيرادها فيه، كما تلاحظ في الأمثلة التالية:

في سورة يونس، آية: 35، يقول تعالى: ﴿**قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟ قل الله يهدي للحق. أفمن يهدي إلى الحق أحقُّ أن يُتبع، أمَّن لا يهدّي إلا أن يُهدى. فما لكم كيف تحكمون؟**﴾، بتعدية الفعل ﴿**يهدي**﴾ باللام مرة وبـ ﴿**إلى**﴾ مرة أخرى. ترى فما الدافع إلى هذا؟ علماً بأنّ اللغة تجيز هذا فتقول هداهُ للحق وإلى الحق.

---

(30) إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط 1. 1937، ص 70.

(31) أسرار القرآن، الشيخ عبد العزيز جاويش، مطبعة الهداية بالآستانة، 1331 هـ، جـ 1، ص 43، نقلاً عن لغة القرآن الكريم، د. عبد الجليل عبد الرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ط 1، 1981، ص 251.

وفي سورة سبأ، آية 24، يقول تعالى في أسلوب من أساليب الدعوة عجيب: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين**﴾. على هدىً أو في ضلال، ولم يجيء التعبير على هدىً أو على ضلال. أو في هدى وفي ضلال. لماذا؟

ويستخدم القرآن الظرف (تحت) مجرداً من حرف الجر (من)، ومرة معه في إحدى وخمسين آية، مثل قوله: ﴿**وأعدّ لهم جنّاتٍ تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا**﴾ [التوبة/100]، و﴿**أعدّ اللهُ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**﴾ [التوبة/89].

ومع الفعل ﴿**سبّح**﴾ يرد سياق العطف بـ(في) مرة، ومرة بدونه، في سور الحشر والحديد والصف والجمعة والتغابن، وهي السور التي تبتدىء بهذا الفعل. كما في هذين المثالين: ﴿**سبّح للّه ما في السموات وما في الأرض**﴾ [الصف، الآية الأولى]، و﴿**سبّح للّه ما في السموات والأرض**﴾ [الحديد، الآية الأولى]. ويتناوب حرفا الجر (على) واللام على الفعل (اصطبر)، فيقول تعالى ﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها**﴾ [طه/132]، و﴿**واصطبر لعبادته**﴾ [مريم/65]، ومرة ثالثة بدون حرف الجر ﴿**فارتقبهم واصطبر**﴾ [القمر/ 27]. وفي مواضع أخرى يتعدّى الفعل صبر بنفسه مثل ﴿**واصبر نفسك**﴾ [الكهف/28]، ومرة يأتي لازماً ﴿**استعينوا بالله واصبروا**﴾ [الأعراف/128].

أترك هذا كله لنباهة القارىء وتأمله في أسرار التعبير القرآني في مجال التعامل مع حروف الجر سواء في صلتها بالأسماء أم في حالة تعدي الأفعال بواسطتها.

- 12 -

ولا نريد أن نختم الحديث عن التنويع في الأساليب القرآنية، دون الإشارة إلى الفاصلة القرآنية التي تتنوّع بشكل لافت للنظر، مستخدمة الحروف ذات التنغيم العالي، مثل النون والميم والراء والألف والياء. وإذا تكررت كثيراً كما في سورة الرحمن، وسورة المرسلات فلأمرٍ مرتبط بالمعاني التي يريد القرآن تقريرها

في النفوس. فقوله ﴿**فبأيّ آلاء ربكما تكذبان؟**﴾ بعد آيات سورة الرحمن ينسجم مع الحديث عن نعم الله التي أسبغها على الجن والأنس. وتكرير ﴿**ويلٌ يومئذٍ للمكذبين**﴾ في المرسلات توكيد للوعيد الجازم الصارم الـذي ينتظر المشـركين المكذبين.

ولا يمكن للبيان العالي الذي يتسم به القرآن أن يضطر إلى الإتيان بفاصلة مراعاة لحـرف الفاصلة السـابق، دون دافع معنـوي أو نفسي. ولقد كـان بعض البلاغيين القدامى يرون أنّ الفاصلة القرآنية في سورة الضحى ﴿**ما ودّعك ربُّك وما قلى**﴾ جاءت مراعاة للألف في الآيات السابقة ﴿**والضحى، والليل إذا سجى**﴾[32]، ولكن التأمل الدقيق الذي تهتدي إليه الأستاذة بنت الشاطىء هو أنّ حذف المفعول به هنا، إذ الأصل (قلاك)، جاء لملحظ معنوي، وهو الخطاب الحاني الذي عوّدنا القرآن إياه حين يخاطب اللهُ سبحانه نبيّه الحبيب، فلا يريد أن يذكر الكاف هنا (قلاك). فلربما يكون فيها ما يمس خاطر الرسول، فجاء التعبير بـ ﴿**قلى**﴾ هكذا، وكأنه غير متعلق به. وهذا نوع من الأدب القرآني في التعامل مع الرسول ﷺ[32]. والحديث عن التنويع في الفاصلة يؤدي بنا إلى إطالـة هذا البحث، وهـو ما لا نريد[33].

ويمكن القول في ختام هذا البحث: إن التنويع في أساليب القـرآن يكاد يكون هو الأصل، فهو تنوع في المعاني وطوابع السور ومشاهد القص أو الوصف، وتنوع في صياغة الجمل والأفعال والمعطوفات والضمائر وحروف الجـر، ثم هو تنوع بين التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والجمع والإفراد، والفصل والوصل، والإظهار والإضمار، والتصريح والكناية، والإطناب والإيجاز، والتعريف والتنكير، إلى غير هذا من أنماط التنويع في الأسلوب القرآني، وهذا ما يحتاج، بحق، إلى بحث مفصل ومعمق يُهتدى به إلى أسرار هذا التنويع وقواعده وأصوله. وهذه دعوة مخلصة لذوي الاختصاص والمتذوقين لأساليب البيان الرباني العالي.

---

(32) ينظر الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، د. بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمن). دار المعارف بمصر، ط 1، 1971، ص 250.

(33) ينظر، الفاصلة القرآنية، د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض، ط 1، 1402 هـ.